الفصل الرابع

الأثر المتبادل بين اللغة والأدب

قلنا إن التقدم الأدبى فى مجتمع ما يتوقف إلى حد كبير على ارتفاع مستواه الاقتصادىّ والاجتماعىّ ، أو ، بعبارة أخرى ، إذا أصبح مؤهلاً لتلك النهضة . ولكن ليس معنى هذا أن ارتفاع مستواه المذكور يحقق له نهضة أدبية تلقائية محتومة ، فلابد أن يظهر بين ظهرانيه أدباء موهوبون يرتفعون هم أيضاً إلى مستوى مجتمعهم ، أو يسمون عليه . ويحققون له النهضة الأدبية الجديرة بنهضة العمرانية .

بيد أن ارتفاع الكاتب أو الشاعر بمستوى أدبه ، فى هذه الحالة ، إلى مستوى لائق بمجتمعه لا يحتاج إلى موهبة إبداعية فحسب ، ولكنه يحتاج أيضاً إلى وجود لغة أدبية مطواعة زاخرة بالألفاظ السهلة النطق ، البليغة الوقع ، المحددة المعنى ، المحتفظة بالجدة . . . ويحتاج كذلك إلى مرانة على استعمالها حتّى يستطيع تطويعها للتعبير فى دقة وأصالة عن الجديد من أفكاره، وتصوير المبتكر من أخيلته . . . فإذا تم له ذلك أفادها على قدر استفادته منها ، ورفع مستوى أدبه ومستواها على السواء .

والذى يحسب أن اللغة ليست إلا مطية لنقل المعنى دون أن تكون لها أهمية فى ذاتها يقع فى خطأ كبير . فالمعنى الحى العميق الصادق الجميل يموت إذا لم يبرزه تعبير حى يطاوله قوة وعمقاً وصدقاً وجمالاً .

ويخطئ كذلك من يظن أن المقصود بما تقدم أن تكون لغة الكتابة لغة فصحى منقطعة الصلة بلغة الكلام ، غير مفهومة للجانب الأكبر من الناس ، لها صيغ بيانية محفوظة ، وألوان من التورية والمجاز والكناية جاهزة يتوالى تكرارها حتّى ترسخ فى الآذان والأذهان ، وتصبح ملاذاً وموئلاً للمعانى العتيقة التى تتضمنها ، ويصعب على المعانى المبتكرة فى هذه الحالة أن تظهر فى صيغ غير مألوفة ، وتشق طريقها بين تلك الأنقاض الأدبية المتراكمة المتصدية لكل جديد .

ومن المسلم به أن الأديب يزداد قدرة على التعبير بازدياد القرب بين لغة الكتابة فى بلده ولغة الكلام . وقد تطرف بعض النقاد المتأثرين بهذه الحقيقة فزعموا أن

الأديب الفذ لا يظهر إلا حين تكون لقومه لغة واحدة للكتابة والكلام على السواء فلا يختلف الأسلوب الأدبى عن أسلوب التخاطب أى اختلاف .

ولكن هذا الزعم ظاهر الخطأ ، فالأدب المكتوب بأسلوب الكلام لا يكون أدباً بحال ، والكلام المقول بأسلوب الأدب لا يعد مجرد كلام أبداً .

إن الأسلوب الأدبى لابد أن يختلف عن أسلوب التخاطب العادىّ لأن كلا منهما يعبر ، على الأغلب ، عن أغراض تختلف عن أغراض الآخر ، فهو يتمرس بالتعبير عنها على مر الأيام فيكتسب فى مجال نشاطه خبرة متزايدة ، وينمو ويتفرع ليستطيع التعريف بكل ما يستجد فى ذلك المجال ، ويبرع فيما لم يبرع فيه الآخر . فيتمكن أسلوب الكلام من أن يصور وقائع وأحداثاً تجرى فى الحياة اليومية دون أن تحفل الأعمال الأدبية بها ، ويبتدع لها كلمات وصيغاً دقيقة الوصف ، ولكنها غريبة على الذوق الأدبى . . . فى حين يحرص أسلوب الأدب على التطهر من الألفاظ المبتذلة ، وانتقاء الألفاظ الملائمة للمعنى الذى يقصده ، ووضعها من الجمل فى مواضع تجعلها أدق تعبيراً ، بل قد تجبرها على الإيحاء بمعان لم يكن التعبير عنها مستطاعاً لولا وضعها فى تلك المواضع .

فى هذا النطاق يختلف الأسلوبان اختلافاً يتعذر معه على أحدهما أن يضطلع بمهمة الآخر على نحو مرض . ولكن ينبغى ألا تتسع شقة الخلاف بينهما إلى الحد الذى تصبح معه لغة الأدب مغايرة تماماً للغة الكلام ، بل تكاد تصبح لغة أجنبية عنها ، فيتعذر فهمها على الناس ، وتحتكرها قلة من المثقفين تشحنها بالتعقيدات اللفظية والمعنوية فتزيدها استغلاقاً على الفهم . . . فهى فى هذه الحالة تنكمش حتى تنحصر فى دائرة ضيقة ، وتنقطع صلتها بالمجتمع . ويبطل تأثرها به وتأثيرها فيه ، وينتهى بها الأمر إلى التجمد ثم إلى الزوال .

وعلى الرغم من وضوح الفروق المتقدمة الذكر بين أسلوب الكتابة الأدبية وأسلوب الكلام يأبى أناس بيننا أن يعترفوا للغة الأدب بأية مميزات ، ويرون نبذها ، واستبدال اللغة العامية بها . . . وحجتهم فى ذلك أن الأدب لم يعد اليوم وقفاً على المثقفين ، ولكنه أصبح ملكاً لجميع الناس ، وهذا يتطلب أن يعبر عن ميول الناس العاديين وأفكارهم بلغتهم ، لا بلغة الخاصة التى اعتاد أن يعبر بها . فإذا أجرى الكاتب على ألسنة العامة فى أعماله الأدبية لغة فصحى لم تجر على ألسنتهم فى الواقع

صارت تلك الأعمال غير طبيعية ، أو غير صادقة فى تصويرها للواقع .

بيد أن خطأ هذا الرأى غير خاف لأن الأدب الأصيل ليس تصويراً سطحيًّا للحياة الواقعية يطابقه كل المطابقة ، ولكنه ، كما قال « بيلينسكى » ، تفهم للحقائق الواقعية بالصور ؛ أو هو ، كما قال تشيرنيشفسكى ، تنبيه إليها ، وإيحاء بها . . . وليست اللغة التى يكتب بها الأديب هى وحدها التى تكسب أدبه الصدق والأصالة ، أو تجرده منهما ، ولكن هذا أو ذاك يرجع ، على الأخص ، إلى مقدار ما يتمتع به من موهبة إبداعية .

والمعادون للغة الأدبية لا يرونها ثقيلة على قارئها فحسب ، ولكن على كاتبها أيضاً . فإذا كان فهمها يصعب على قارئها ، فإن كتابتها تصعب على مؤلفها سواء بسواء . ذلك أن الذى يكتب باللغة العامية يجد الألفاظ المعبرة عن معانيه فى متناوله ، فتسهل الكتابة عليه كما يسهل الكلام على المتكلم ، وتتحدر طبيعية لا يشوبها تعمل أو افتعال ، فى حين يجد الكاتب باللغة الفصحى صعوبة فى البحث عن اللفظ الملائم للتعبير الدقيق عن معناه ، وهذا يشتت على الأغلب ذهنه ، ويثير أعصابه ، ويخرج به عن طبيعته ، ويخمد العاطفة التى يريد التعبير عنها ، ويبدد قدرته على الإبانة ، وقد يستعصى عليه الاهتداء إلى اللفظ المطلوب ، فيستعمل لفظاً آخر يعبر عن معنى غير الذى أراده ، ولابد أن ينتهى به ذلك إلى ترك زمامه للألفاظ ، والرضا بأن تملى عليه معانيها بدلاً من أن يملى عليها معانيه .

ويستشهد أصحاب هذه الحجج بقول دانتى : « لم تجبرنى كلمة قط على قول لم أرده ، وكم من كلمة أجبرتها على قول ما أريد » . وهم يزعمون أن هذا الشاعر الكبير لم يكتسب قدرته التعبيرية التى يتفاخر بها إلا باستعماله اللغة الإيطالية الدارجة فى نظم روائعه بدلاً من اللغة اللاتينية العتيقة . ولكن التاريخ الأدبى يدلنا على خطأ هذا الزعم ، فإن دانتى لم يكن السباق إلى استعمال اللغة المحلية الدارجة فى صياغة منظوماته ، ولكن الذى بدأ ذلك هم الشعراء التروبادور الفرنسيون والإيطاليون الذين سبقوه إلى الوجود بأكثر من قرنين ، وعلى الرغم من ألمعية أولئك الشعراء الذين طرقوا موضوعات أدبية جديدة ، وتحروا الصدق فى التعبير عن مشاعرهم ، وحوّلوا مجرى التيار الأدبى فى عصرهم ، فإن أعمالهم لم ترق إلى المستوى الذى يكفل لها الخلود لأنها

كانت تفتقر إلى الأسلوب الأدبى الغنىّ الذى يحقق لها ذلك . إلا أنهم استطاعوا مع ذلك ، هم ومن عقبهم من الشعراء أن يهذبوا اللغة العامية التى بدأوا الكتابة بها ، وأن يثروها بالصيغ الأدبية الجديدة ، ويطوّروها ويطوّعوها للتعبير عن معان أعمق غوراً وأبعد متناولاً . . . واستغرق ذلك أزمنة بعد أزمنة ، واستنفد منهم جهوداً فوق جهود حتى تمكنت أقلامهم من توفير الأسلوب الأدبى الذى مكن عبقريًّا مثل دانتى من نظم آيته التى لا تزال تحتفظ بمكانتها الأدبية السامية إلى اليوم .

ولا وجه للمقارنة مع ذلك بين لغتنا الفصحى والعامية من ناحية ، وبين اللغة اللاتينية وسائر اللغات الأوربية من ناحية أخرى . فاللغة اللاتينية دخلت أوربا الغربية فى ركاب الجيوش الرومانية الغازية ، ولم يتداولها إلا الحكام الغزاة ، ومن مالأوهم من سادة البلاد المقهورة ، وظل فهمها مستعصياً على شعوب تلك البلاد ، ولم يظهر لها فى لغاتهم المحلية إلا أثر ضئيل . ثم أصبحت على مر الزمن ، لغة الكتابة . . . ولم يعد يتردد صداها ، بعد انحسار الغزو الرومانىّ ، إلا فى دوائر الدين والعلم والأدب . . . ثم أخذ هذا الصدى يخفت شيئاً فشيئاً حتى كاد يتبدد ؛ فلا عجب أن تنبثق فى هذه الحالة لغات أدبية فصحى من صلب اللغات الدارجة فى مختلف البلاد الأوربية . . . أما لغتنا العامية فهى بعينها لغتنا الفصحى ، ولا فارق بينهما إلا ذلك الفارق القائم دائماً بين الأسلوب الأدبى وأسلوب التخاطب الدارج ، وقلما يعجز الرجل العادى ، بل حتى الأمىّ ، عن فهم لغتنا الأدبية المعاصرة ، اللهم إلا المكتوبة بقلم أديب يميل إلى التعقيد . ثم إن هذا الفارق يضيق فى الوقت الحاضر شيئاً فشيئاً ، ويقترب من الحد الذى لابد من قيامه حتى يحتفظ لكل من الأسلوبين الأدبىّ والدارج بمقوماته ، ويكفل له تأدية رسالته على خير وجه ؛ فها هى ذى الكلمات الفصيحة تغزو لغة الكلام دون انقطاع بعد أن عاونها على ذلك انتشار التعليم ، ورواج الصحف ، وعدم إحجام مؤلفى الزجل والأغانى الشعبية ، ومسرحيات هذه الأيام ، عن اقتباس الملائم منها لأعمالهم ؛ فى حين أخذت اللغة الفصحى تجنح ، من الناحية الأخرى ، إلى البساطة ، وتؤثر التعبير السهل العذب البليغ على التعبير الطنان الأجوف .

ولو استجاب أدباؤنا لدعوة أعداء اللغة الفصحى فأقلعوا عن الكتابة بأسلوبها

الرفيع ، وأهملوه حتى يندثر كما اندثرت اللغة اللاتينية ، واستبدلوا به الأسلوب الدارج ، فإنهم سيعيدون بذلك سيرة الأدب الأوربى فى القرون الوسطى ؛ أى أن جهدهم سينصرف خلال حقب طويلة إلى تهذيب الأسلوب العامىّ الذى يكتبون أو ينظمون به ، وتحوير صيغه حتى ترتفع قدرته التعبيرية ، ومستواه الأدبىّ ، وقيمته الجمالية ؛ وسيضطرهم ذلك إلى إمداده بالوفير من الألفاظ الفصحى . . . فإذا العناية بالشكل تستغرق جهدهم ، وتستنفد وقتهم ، وتصرفهم عن العناية بالمضمون حتى يستقيم لهم أسلوب لا يستعصى عليه التعبير عن أدق المعانى والأحاسيس ، فإذا استقام لهم مثل هذا الأسلوب على نحو ما يرجون ، ويرجو قراؤهم ، فإنه سيختلف عندئذ عن لغة الكلام ، ويصبح بدوره أسلوباً فصيحاً ، وإذا مشكلة اللغتين العامية والفصحى تتكرر وتعود إلى ما كانت عليه اليوم ، ويجد حملة الأقلام أنهم بذلوا جهداً جهيداً فى غير طائل ، وأضاعوا وقتاً ثميناً دون جدوى .

واللغات لا تشذ ، بطبيعة الحال ، عن سائر الموجودات فى خضوعها لحركة التطور المستمرة ، متأثرة فى ذلك بالظروف المحيطة بها ، ومؤثرة فيها على التوالى . فكل لغة تتطور متأثرة بارتفاع مستوى مجتمعها الفكرى ، ومستوى أدبه وذوقه الجمالى ، وباتساع مجال نشاطه الإنشائىّ ، وبما يقتبسه مما يحتاج إليه من ذخائر اللغات الأجنبية الوافدة عليه . . . وهى تؤثر بدورها فى مجتمعها وأدبه ، وتعينهما على التطور بمقدار نشاط تطورها ، خاضعة دون انقطاع لذلك التأثير المتبادل ، والتطور المترتب عليه .

ونظرة سريعة إلى التاريخ الأدبىّ تدلنا على أن الأدب كان يعيش على إحسان ذوى السلطان فى كل مجتمع تستطيع قلة من أفراده أن تتحكم فى رقاب جموعه ، وتفرض عليهم العمل الشاق ، وتجمع الثروات من نتاج كدهم ، وتعيش عالة عليهم ، وتستمد سعادتها من أسباب شقائهم . ويسود فى مثل ذلك المجتمع الاعتقاد بأن العمل وصمة عار تلطخ جبين العاملين ، لأنه دليل على العوز ؛ وبأن البطالة شرف مقصور على العاطلين لأنها دليل على الغنى والجاه . . . وبازدياد مال تلك الطبقة المتميزة ، واتساع أوقات فراغها ، تفرط فى إحاطة نفسها بمظاهر البذخ ،

وتعالج ملل البطالة بإقامة الحفلات الصاخبة التماساً للمتع الرخيصة بين أقداح الخمر ورقص القيان . . . ومن الطبيعىّ أن يتملق الأدب حينئذ أولئك المتفضلين عليه ، وينصرف اهتمامه إلى مرضاتهم ، فيمتدح رذائلهم على زعم أنها فضائل ، ويصور مجالس لهوهم ومجونهم تصويراً خلاباً ، ويكيل لهم المديح ليشيع زهوهم وخيلاءهم ، ولا يتورع عن تبرير مظالمهم ، وتزويق الباطل الذى يؤيدونه وتمويه الحق الذى يهضمونه ؛ ولا يكتفى بأن يصير وسيلة لتسليتهم وإمتاعهم ، بل يرضى كذلك بأن يصير أداة لتوطيد سلطانهم الغاشم . . . وتتكيف لغته أيضاً على نحو يجارى ذوق أولئك العاطلين ، فتكتظّ بحشو من المترادفات ، ومن الألاعيب اللفظية والمعنوية ، ومن أفانين الطباق والسجع والتصنيع والترصيع ، وغير ذلك من تزاويق الكتابة الملائمة لحياة البطالة .

وثمة مثل آخر يدل على اتجاه الذوق فى مثل ذلك المجتمع ، فالمرأة عنده لا تعد جميلة إلا إذا كانت بدينة ، لأن اكتنازها بالشحم واللحم شاهد على انتمائها إلى علية القوم ، وعلى تمتعها بحياة البطالة التى تتيحها وفرة المال ، وهذا لا يرفع قدرها فى عيون الناس وحسب ، ولكنه يحيطها بهالة من حسن موهوم .

وإذا عبرنا التاريخ إلى العصر الحاضر وجدنا أن المعتقدات القديمة التى أشرنا إليها تغيرت من النقيض إلى النقيض بتغير الأوضاع الاقتصادية والسياسية ، فأصبح العمل شرفاً يزهى به العاملون ، والبطالة حطة يخجل منها العاطلون ، وصارت قيمة الإنسان تقاس بقدر ما يوفره لبلده من إنتاج ، وما يحققه للناس من نفع . أما الذى ينتج على قدر ما يستهلك فحياته تصبح كمماته ؛ وأما المستهلك غير المنتج فموته أجدى من حياته .

وتغير الذوق الجمالىّ تبعاً لذلك ، وأصبح جمال جسد المرأة يقاس بقدرة أعضائه على تأدية وظائفها فى يسر ، وتحقيق النفع المطلوب منها كاملاً ، فلا تعوقها نحافة تؤدى إلى الضعف والهزال ، ولا تؤودها سمنة تؤدى إلى قعود الهمة ؛ وقد قيل فى هذا إن الجمال يكتمل للمرأة عندما تحقق أعضاؤها أكبر قسط من النفع ، وأوفر قدر من الحرية ، فتمدها بأكمل صحة ، وأشد نشاط وحيوية ، وأتم قدرة على الانطلاق . . . فإذا كانت عيشة البطالة هى التى حددت فيما مضى ذوق الناس ، فإن العمل وما يوفره من منفعة وحرية هو الذى يحدد الذوق العام فى هذا العصر .

وقد أثر ذلك الذوق ، بطبيعة الحال ، فى اللغة التى لم تعد تروق الناس إلا إذا تخلصت من الزوائد غير المجدية ، وصار كل لفظ فيها نافعاً كل النفع ، أى مؤدياً للمعنى المطلوب على أدق وجه وأكمله . . . وصار كذلك منطلقاً فى حرية ، أى غير مقيد بأى قيد من قيود الحشو غير المثمر ، والزخرفة الجوفاء . فحينما يتم ذلك تتهيأ اللغة للقيام بدورها الجديد ، وتصبح ملائمة للتعبير عن المفاهيم الحديثة ، قادرة على الارتفاع بالأدب إلى المستوى المأمول . .. فالمنفعة والحرية أصبحتا إذن تحددان القيمة الجمالية للغة ، كما تحددان قيمة سائر الأشياء فى الوقت الحاضر .

* * *

ومن تحصيل الحاصل أن نقول إن الأدب العربىّ خضع بدوره لقانون التطور ؛ ويخيّل إلينا أن أحداً لا يعترض على ذلك لوضوحه ، ولكن هناك كثيرين يعترضون علينا إذا قلنا ، مخالفين الظن الشائع ، إن أسلوب الأدب عند العرب القدامى كان يختلف اختلافاً ملحوظاً عن أسلوب كلامهم ، وإن كانت ألفاظ الأسلوبين لم تختلف . . . ونحن لا نعرف فى الواقع كيف كان كلام أولئك العرب ، وليست لدينا نماذج منه نستطيع مقارنتها بشعرهم الذى يعد أهم ما خلفوه من تراث أدبى . وكل ما نعرفه عنه أنه سلم من الخطأ النحوىّ ، وبرئ من اللفظ الحوشىّ ، ولكن هذه السلامة والبراءة لا تدل بحال على أنه كان يرقى ، من حيث جمال الصياغة ، وحسن اختيار اللفظ المعبر بدقة وبراعة عن المعنى المقصود ، إلى مستوى اللغة الأدبية ، فى حين هناك ما يدل على أنه لم يرق إليها ، وهو قصور بعض الشعر العربى نفسه عن بلوغ مرتبة بعضه الآخر . فهناك فارق كبير بين أسلوبى شاعر فحل وشاعر عادىّ حتى ليكاد أسلوب الشاعر الثانى يبلغ ركاكة العامية وفهاهتها إذا قورن بأسلوب الشاعر الأول ، ولو كان كلام العرب القدامى فصيحاً كأدبهم لما بهرتهم بلاغة شعرائهم وكتابهم ، وملأتهم زهواً بها وتفاخراً . لقد كان ثمة فارق بينهما ظل يتسع بمقدار تمرّس كل منهما بالتعبير عن مشاعر وخواطر تختلف فى مستواها ودوافعها ومراميها عن الخواطر والمشاعر التى يعبر عنها الآخر . . . وبمقدار اشتقاق الكلمات المتعددة من الكلمة الواحدة ، ونحت الجموع المختلفة من الجمع الواحد ، وإثراء اللغة الفصحى على هذا النحو حتى تتوفر للشعراء كلمات متعددة تعبر عن

المعنى الواحد ، وينفسح لهم المجال ليختاروا من تلك المترادفات الكلمة التى يتطلبها وزن الشعر ، ويحتاج إليها تعدد قوافيه . . . وقد اختصت اللغة الفصحى باستعمال أكثر هذه الكلمات التى كانت اللغة العامية فى غير حاجة إلى استعمالها ؛ وإنما كانت فى حاجة إلى أسماء جديدة لكل ما ينتجه المجتمع أو يستورده من سلع مستحدثة ، بل لكل ما يستجد فى حياته المتطورة من أمور . . . والعامة يستعيرون تلك الأسماء من لغات أجنبية ، ويستعملونها كما هى ، بل مع تشويه نطقها . ولا يتورعون عن ذلك لعدم حرصهم على نقاء لغتهم . . . ثم إنهم فوق ذلك يؤثرون سهولة النطق ، وتوفير الوقت ، فيحذفون أحياناً بعض حروف كلماتهم ، ويدمجون أحياناً أخرى كلمتين منها أو أكثر فى كلمة واحدة ، ولا يبالون ذلك لعدم حرصهم أيضاً على سلامة لغتهم وسلاستها . وكم يبتدعون من كلمات غريبة أو مضحكة . قاصدين أول الأمر التفكه بها ؛ ثم تعتاد الآذان تلك الكلمات بعد انتشارها . ولا تلبث أن تنضم إلى متن لغتهم التى يزيدها كل ما ذكرناه بعداً عن لغة الأدب ، وعجزا عن توفير الشكل الفنى للعمل الأدبى ، إلا إذا مرت — كما قلنا — حقب بعد حقب ، دأبت خلالها أجيال بعد أجيال من الكتاب الذين يستعملونها ، على تقويم اعوجاجها ، وإصلاح فسادها ، وتنقيتها من شوائبها ، وتأهيلها للقيام بالدور المرجو منها فى ميدان الأدب . . . والدهر هو الذى يصلح ما أفسده الدهر .

ولا يعنى ما تقدم أن ترفض اللغات الفصحى اقتباس الكلمات التى تنقصها من اللغات الأخرى ، فهى إن فعلت ذلك تجمدت وفقدت صلاحيتها للتعبير عن كل مستجد فى الحياة الدائمة التطور والتغير . . . واللغات الحية جميعها لا تحجم أبداً عن استعارة الكلمات والتعبيرات من اللغات الأجنبية ، ولكنها تحورها قبل استعمالها حتى لا يختل التناسق بين الأصيل والدخيل من ألفاظها ، وقد نحت اللغة العربية القديمة هذا النحو الذى لا مناص منه .

وفى عصور هجرة الشعوب المختلفة الأجناس ، وإغارة بعضها على بعض ، واختلاط المنتصر منها بالمنهزم ، وامتزاجهما إلى الحد الذى ينعدم فى الفارق بين كليهما مع مرور الزمن ، ويصبحان شعباً واحداً ، كانت لغتا القاهر والمقهور تختلطان أيضاً ، وتمتزجان إلى أن تتولد من مزيجهما لغة جديدة .

وقد حدث هذا للغة العربية فى عهدها الأول كما حدث لغيرها من اللغات . ومن الطبيعىّ أن يشيع التنافر فى أول الأمر بين أجزائها النابعة من أصول مختلفة ، وأن تكثر فيها الكلمات الخشنة المتفقة مع خشونة الطباع فى ذلك العهد البدائى . ثم اتصل العرب بجيرانهم عن طريق التجارة ، وتأثروا بالأمم التى كانت أرقى منهم حضارة ، فأخذت طباعهم تتهذب شيئاً فشيئاً . وأحدث ذلك أثره فى لغتهم . وما ظهر الإسلام وانتشر بينهم ، وتمكن من نفوسهم حتى بصرهم بالفضائل . ونفرهم من الرذائل ، وهداهم إلى الخير ، واجتث منهم الشر ، وغرس فيهم أنبل الصفات ، وأرق المشاعر ، وهيأهم لتحقيق حضارة لم تطاولها حضارة أخرى فى ذلك العصر ، وانعكس ذلك على أدبهم ، فقطع شوطاً جديداً فى تخليص لغته مما علق بها من الألفاظ الخشنة والصيغ الجامدة حتى جعلها صالحة للتعبير عن الجديد من الصفات السامية ، والمعانى الرفيعة ، والأحاسيس المهذبة . . . وما بلغت الحضارة العربية أوجها فى العصر العباسىّ الأول حتى ارتفعت اللغة إلى مستواها ، ولم تعجز عن تصوير كل ناحية من نواحى رقيها الفكرى والحسىّ . ومعاونتها على المضىّ فى طريق التقدم .

ولكن ارتفاع المستوى الاقتصادى انقلب حينذاك إلى الإضرار بالحضارة العربية بعد أن أفسح لها فى طريق التقدم ؛ فما وفر الأموال الطائلة للطبقة ذات الجاه والسلطان حتى انغمست فى حمأة حياة اللهو والبطالة . فانحلت أخلاقها ، وفسدت أذواقها . وما لبث هذا الفساد والانحلال أن تطرقا إلى الأدب ، وحدث له ما لابد أن يحدث فى مثل هذه الحال . فدفعته الظروف التى سبق شرحها إلى ممالأة تلك الطبقة ، والحرص على إرضاء ميولها وأذواقها . واستبدلت لغته اللفظ المائع باللفظ الجاد ، والتعبير الزائف بالتعبير الصادق ، وزخرت بالألاعيب البيانية المزوقة ، فازدادت ، على الرغم من انحطاطها ، بعداً عن لغة الكلام .

وإذا حاولنا أن ندرس نشأة اللغة الأدبية الإنجليزية فى الحقبة الأخيرة من العصر الوسيط ، ونتبين كيف تطورت حتى استطاعت أن تعاون أدب بلادها على التقدم ، وتمهد السبيل لظهور تشوسر ، وتمكنه من إبداع روائعه ، فإن صعوبة هذه المحاولة ستسهل علينا إذا رجعنا إلى تاريخ اللغات الأدبية الأخرى ، واسترشدنا بشرحنا السابق لظروف نشأتها ، وأسباب تطورها . . .

قلنا إن إنجلترا تعرضت – قبل أن يغزو النورمانديون أراضيها – لغارات قبائل « الآنجلز » و « السكسون » و « الغوط » . وكانت هذه القبائل تشن غاراتها بقصد السلب والنهب[١] . ثم استقرت فى الجزيرة البريطانية . واختلطت بسكانها الأصليين ، فاختلطت لغاتها بلغتهم . وتولد الشعب الإنجليزىّ من امتزاج هذه الأجناس البشرية المختلفة ، وأصبحت له لغة تكونت من اندماج تلك اللغات المتباينة ، وأصبح له منذ ذلك الحين تاريخ .

وكانت هذه اللغة فى عهدها الأول خشنة كخشونة القبائل الغازية والمغزوة قبل توحدها . ولكنها أخذت تتهذب شيئاً فشيئاً عندما اعتنق الشعب الإنجليزىّ الناشئ المسيحية ، وتهذبت أخلاقه ، ورقت مشاعره ، وارتقى مستواه الحسى والفكرى . وحفزه ذلك إلى الأخذ بأسباب حضارة عصره . وكانت للقبائل التى تولد منها قصص جلبتها من بلادها ، أو البلاد التى مرت بها فى طريقها إلى إنجلترا ، فظهر شعراء إنجليز نظموا تلك القصص بلغتهم الجديدة . ومن ثم بزغت الخيوط الأولى لفجر الأدب الإنجليزىّ .

وكان لأولئك الشعراء فضل كبير فى استخلاص أسلوب أدبىّ مستساغ من لغتهم الخشنة المتنافرة . وهذا لم يتحقق إلا بعد مشقة عانوها فى غربلة ألفاظها ، وانتقاء أسهلها نطقاً ، وأرخمها نغماً ؛ وتنسيقها بدقة فنية تجعل العبارات المركبة منها أسمى صياغة ، وأبلغ أثراً من العبارات المألوفة . . . وقد شرح « إيڤور إيڤانز » المعاناة التى من هذا القبيل بقوله : « والصعوبة التى تواجه الكاتب هى أن الكلمات تستعمل فى جميع أغراض الحياة اليومية حتى تصبح مبتذلة كالنقود التى أبلاها الزمن من كثرة الاستعمال . والشاعر يواجه صعوبة أكبر وهو يحاول النظر إلى الكلمات نظرة جديدة ، فهو فى القصيدة يرتبها ترتيباً يوفر متعة كالتى توفرها لنا الموسيقى أو الصور . . .

وينشأ إلى الجانب الأكبر من هذه المتعة عن اختيار الكلمات . ولكن جانباً آخر ينجم عن ترتيب هذه الكلمات بحيث يعذب وقعها فى الأذن . . .

والشاعر يواجه صعوبة لا يواجهها الموسيقار ، وهى أن كلماته ينبغى أن تدل

---

(١) كتاب « موجز تاريخ الأدب الإنجليزى » السابق الذكر ، ص ٥ .

على معنى محدد ، وبعض الشعراء لا يحفلون من شعرهم إلا بوقعه الموسيقى . ولكن كبار الشعراء يعتدّون بالمعنى ، ويعلقون عليه أهمية قصوى » [١] .

فالأسلوب الأدبى إذن وليد اختيار الألفاظ التى لم تبتذل ، وحسن ترتيبها وتنسيقها حتّى توفر المتعة التى توفرها سائر الفنون ، مع مراعاة دقة تعبيرها عن المعنى . ومثل هذا الأسلوب لا يتوفر — كما قلنا — ولا يرقى مستواه على التوالى ، إلا بالجهود التى تبذلها أجيال متعاقبة من الشعراء والكتاب ، وبما يضيفه كل جيل لاحق من تحسين على التراث الأدبى الموروث عن الجيل السابق .

ولكن مثل هذه الجهود لم تنفرد بتطوير اللغة الإنجليزية فى العهد الذى تحدثنا عنه ؛ وإنما وقع بعد ذلك حادث لم يشارك فى تحويرها وحسب ، بل أدخل عليها من التبديل ما كاد يجعل منها لغة أخرى . ففى عام ١٠٦٦ تعرضت إنجلترا لغزو النورمانديين الذين عبروا إليها المانش من شمال فرنسا ، واحتلوا أراضيها ، واستقروا فيها بعد حروب ظلت تدور بينهم وبين السكان الأصليين حتّى عام ١٠٨٧ ؛ ومن أهم النتائج التى ترتبت على ذلك انكماش اللغة الإنجليزية التى كانت متداولة وقتذاك ، وانحطاط قدرها .

وقد تحدث « ا . ا . دويل » عن ذلك فقال : « جاء الغزو إلى إنجلترا بلغة جديدة هى اللغة الفرنسية النورماندية . وطرأ تغير على وظائف اللغات خلال القرن التالى للغزو ، فحلت اللغة اللاتينية أولاً ، واللغة الفرنسية ثانياً ، محل اللغة الإنجليزية القديمة فى التعبير بالكتابة عن الأغراض الخاصة والعامة . وازداد استعمال اللاتينية عن ذى قبل فى الشئون الدينية . واضطلعت اللغة الفرنسية على الأخص بإبهاج الطبقة الأرستقراطية الجديدة وتثقيفها . وأصبحت الإنجليزية لغة تخاطب العامة فحسب . . . وجردها عدم استعمالها فى الكتابة من أية قدرة على التعبير عن الآراء الجديدة ؛ واستفحل عجزها بما طرأ على مختلف العلوم من تطور وتجدد فى حين توقفت هى عن التطور والتوسع اللازمين لكل لغة ، وفقدت فاعليتها كأداة للتعبير شيئاً فشيئاً . . . وهى التى كانت قبل الغزو وتلاحق تطور عصرها الحضارى » [٢] . . .

---

(١) الكتاب المذكور ص ١٥ .

(٢) يراجع مقاله المذكور سابقاً ، ص ٨٥ ، ٨٦ من كتاب « عصر تشوسر » .

بيد أن بعض المواعظ والأشعار المنظومة لإلقائها فى المحافل العامة ظلت تصاغ بلغة إنجليزية يمكن أن توصف بأنها لغة أدبية ؛ وهذا ، على الأقل ، جعل الصلة المثمرة تستمر بين اللغتين الأصلية والوافدة عليها . وقد استغرق مزج العادات ، ومقومات الحياة الجديدة بالقديمة ، وقتاً طويلاً . ولم يتم اندماج العناصر الأجنبية بالعناصر الوطنية الأصلية إلا فى منتصف القرن الرابع عشر .

ولعبت اللغة « الأنجلو نورماندية » الجديدة دوراً رئيسيًّا فى تصريف أعمال الطبقة الراقية ؛ ثم اتصلت ، من جهة أخرى ، بسائر طبقات الأمة ، وعلى رغم ذلك ظلت ، إلى منتصف القرن الرابع عشر ، بعيدة عن أن تعد ، حتى بين أرقى المجتمعات الإنجليزية ، وأغزرها ثقافة ، لغة وطنية ؛ وإن كانت تعد مفيدة ومحققة لبعض الأغراض . بيد أن عدداً كبيراً من الشعب الإنجليزى كان مع هذا يفهمها ويقرأها ، ويتخاطب بها[1] .

أما الطبقة العليا ذات السيادة ، وهى النورماندية الأصل ، فقد ظلت تتحدث وتكتب بلغتها الأصلية ، وهى الفرنسية .

وبذلك عاشت بين ظهرانى الأمة الإنجليزية الجديدة ، المتحدة سياسيًّا ، المختلفة أجناساً ، أربع لغات مختلفة ؛ منها لغة العامة ، وهى الإنجليزية الأصلية ؛ ولغة الطبقة الإنجليزية المثقفة المشرئبة إلى التشبه بالطبقة العليا الأرستقراطية ، وهى مزيج من اللغتين الإنجليزية والفرنسية ؛ ثم لغة تلك الطبقة العليا ، وهى الفرنسية ؛ ثم لغة الدين وهى اللاتينية ؛ وتفرعت كل واحدة من هذه اللغات إلى لهجات متعددة .

ومما ساعد على تسرب مزيد من الكلمات الفرنسية إلى اللغة الإنجليزية ازدياد تفتح أذهان الإنجليز فى ذلك الوقت ، وهم على أعتاب نهضة حضارية ، إلى علوم فرنسا وأشعارها التى نقل إليهم الغزاة طرفاً منها ، فانكبوا على دراسة تلك العلوم واستيعابها ليشبعوا نهمهم إلى التقدم العمرانى ، وأقبلوا على الاستماع إلى تلك الأشعار العاطفية ، والترنم بها ، ليرووا تعطشهم إلى تهذيب أحاسيسهم ، وتنمية ثقافتهم . . . واستسهلوا الاحتفاظ للمبتدعات العلمية بأسمائها الأصلية ، واستعذبوا تغذية شعرهم الإنجليزى بالألفاظ الفرنسية الرقيقة العذبة .

---

(١) يراجع المقال المذكور ، ص ٨٧ من كتاب « عصر تشوسر » .

وفى عام ١٣٣٧ صدر المرسوم الملكى الشهير الذى حظر على الشعب الإنجليزىّ مزاولة أية لعبة رياضية إلا الرماية بالقوس والوتر . وقد جاء فى أحد بنود المرسوم المذكور ما يلى « على جميع النبلاء والفرسان ، والمواطنين الشرفاء من سكان المدن الطيبة ، أن يبذلوا عناية واهتماماً بتعليم أبنائهم الفرنسية . . . »

وأحدث هذا المرسوم أثره فى زيادة انتشار اللغة الفرنسية بين أبناء الشعب الإنجليزىّ ، وهيأ ظرفاً جديداً لتسرب كلمات أخرى منها إلى لغتهم[١] .

ولكن الإنجليز القائمين على شئون التعليم ، المتعصبين للغتهم الوطنية ، لم يستجيبوا استجابة جدية لأمر مليكهم ، وسرعان ما أهملوا تدريس اللغة الفرنسية ، ومن ثم أخذت السيادة تنعقد شيئاً فشيئاً للغة الإنجليزية المتطورة التى أصبحت تضم كلمات فرنسية بلغت خلال القرنين الثالث عشر ، والرابع عشر ، بحسب تقدير العلامة سكيت ، زهاء ثلاثة آلاف كلمة[٢] .

وألغيت التفرقة الجنسية فى إنجلترا عام ١٣٤٠ ، وهو نفس العام الذى ولد فيه تشوسر ، وفقد النورمانديو الأصل ما كانوا يتمتعون به من امتيازات ، وما حل عام ١٣٦٢ حتى تم استعمال اللغة الإنجليزية فى المحاكم ؛ وفى العام التالى افتتح رئيس الوزراء الدورة البرلمانية بخطاب ألقاه بالإنجليزية أيضاً . . . بيد أن اللغة الفرنسية الدخيلة لم تفقد جميع معاقلها أمام زحف اللغة الوطنية . وظل بعض الشعراء الإنجليز ، ومنهم « جووار » ، صديق تشوسر ، ينظمون فى بعض الأحايين شعرهم بتلك اللغة ، وبقيت المناقشات تدور بها أيضاً فى مجلس النواب الإنجليزى حتى بعد موت تشو ، كما ظلت القوانين تصدر بها حتى عهد هنرى الثامن .

وكانت هى لغة البلاط كذلك فى أيام تشوسر ، ولم يقم دليل على أن إدوارد الثالث كان يستطيع مخاطبة مجلس العموم بلغة أعضائه الإنجليز ؛ غير أن هنرى الرابع اضطر ، تحت ضغط وطنية الشعب ، أن يعنى عناية خاصة بإلقاء خطبة العرش أمام ذلك المجلس بلغة إنجليزية مبينة[٣] .

ونخلص مما تقدم إلى أن الظروف تهيأت فى عصر تشوسر لتزويد عبقريته

---

(١) كتاب « تشوسر وإنجلترا فى زمانه » بقلم « ج . ج . كولتون » ، ص ٣ .

(٢) يراجع الفصل الرابع من كتاب « افتتاحية قصص كانتربرى لتشوسر » بقلم ا . و . بولارد .

(٣) تراجع الصفحة الرابعة من كتاب « تشوسر وإنجلترا فى زمانه » .

بأسباب التفتح والقدرة على خلق تلك الآيات الأدبية التى نقلت الأدب الإنجليزىّ من طور أدب العصر الوسيط إلى طور أدب العصر الحديث .

ففى خلال بضعة قرون أغار على إنجلترا ، كما قلنا ، غزاة إسكندنافيون وألمان ودانماركيون ونورمانديون ؛ وكان أولئك الغزاة فى تعاقبهم على الجزيرة المغزوة يختلطون بمن فيها من سكان أصليين . ومن مغيرين سابقين ، ويدمج الزمن بين بعضهم وبعض . ولم يلبث اندماجهم أن تمخض عن شعب موحد ورث عن أولئك الأسلاف المتنوعى الأجناس مختلف معارفهم وخبراتهم ؛ وأشتات ميزاتهم ؛ وتدفق فى عروقه ذلك الدم الذى تجدد بعد كل غزوة ، فجدد حيويته ، وشحذ همته ، وضاعف قوته البدنية والعقلية . . . ووفدت عليه مع جدوده الغزاة لغات متنوعة زوّدت لغته بكلمات جديدة أغنتها ومكنتها من تحديد أفكار كانت مضطربة فى الأذهان لافتقارها إلى ألفاظ تجسدها ،/ وجملت معانى كانت عاطلة من كل جمال لافتقارها إلى ألفاظ تعكسها على حقيقتها . وأوضحت خواطر كانت هائمة على غير هدى . . فازدادت مدارك الناس تفتحاً ، وبصائرهم نفاذاً ، وأذواقهم سمواً ، ومعارفهم اتساعاً ، وألسنتهم قدرة على الإفصاح . وعلومهم وآدابهم تقدماً وازدهاراً .

وكان من حظ تشوسر أن انحدر من صلب هذا الشعب المتطلع إلى النهوض ، وفتح عينيه أول ما فتحهما على فجر حضارة سطع لألاؤه فى سماء بلاده . فقد كانت إنجلترا ، قبل مولده بقرن من الزمان ، تدعى حق السيادة على البحار . وحدث ، وهو بعد فى مهده ، أن انتصر أسطولها فى موقعة « سلايز » البحرية الفاصلة . ثم احتلت « كاليه » فأصبحت تملك مستعمرة لأول مرة فى تاريخها . وأحرزت جيوشها أهم انتصاراتها فى السنوات العشر التى تلت ذلك . . . وقلما استطاع شعب من الشعوب أن يحرز مثل التقدم الذى أحرزه الشعب الإنجليزى — خلال تلك الحقبة — فى ميدان التجارة ، وأن يفوز بمثل القدر الذى فاز به من الحقوق والحريات فى ميدان السياسة . وأن يتم له ذلك فى مثل المدة الوجيزة التى استغرقها فوز الشعب الإنجليزىّ فى الميدانين المذكورين[1] .

خطف هذا اللألاء بصر تشوسر . وزاد ذهنه توقداً ، وشعوره تأججاً ، وخياله

---

(١) يراجع الكتاب المذكور ص ٨ .

تفتقاً ؛ وجعله ذلك — إلى جانب استعداده الفطرىّ — أشد تأثراً بنشاط مجتمعه الأدبىّ ، وحرصاً على تتبعه ، فانكب على قراءة كل ما وصلت إليه يده من كتب الأدب ، فتيقظت موهبته الإبداعية . وألحت عليه أن ينظم شعراً يعكس فيه ما طاف بذهنه المتوقد من أفكار ، وما تراءى لتصوره المحلّق من أخيلة . وما نبض به قلبه الخفاق من أحاسيس ، فإذا هو يبتدع فى ميدان النظم ما لم يبتدع مثله شاعر إنجليزىّ من قبل . ولم يكن ليتيسر وصوله إلى الذروة فى ذلك الميدان ولم تمده لغة مجتمعه بما احتاجت إليه منظوماته من الألفاظ الطلية الرقيقة ، والصيغ البليغة الدقيقة .

وإذا كان تشوسر مديناً بهذا التوفيق للغة التى نظم بها شعره فإنه أوفى دينه لها بما أضافه إليها من تعبيرات مبتكرة صاغها على نحو أنطق كلماتها بمعان لم يكن النطق بها فى مقدورها . وخلع عليها رونقاً وجمالاً لم يتحل بمثلهما من قبل .